سلسلة الأعلام

# الخلفاء


تأليف: محمد عبد الظاهر المطارقى

رسوم: محمد لطفى

جرافيك: شريف محمد








١١ شارع الطوبجى - بين السرايات - الجيزة

تليفاكس: ٧٤٩٣٦٨٥

Site : www.ynabeea.com



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا
مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم
مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن
يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا
تَبْدِيلًا﴾

# الخلفاء

الْخُلَفَاءُ هُمُ الْحُكَّامُ الَّذِينَ تَوَلَّوْا أَمْرَ الْمُسْلِمِينَ فِى شَتَّى الْبِلادِ وَعَلَى مَدَارِ الْعُصُورِ. والْخُلفاءُ لَهُمْ أُسْوَةٌ حسنَةٌ فِى سِيرَةِ أنْبِيَاءِ اللهِ تَعَالَى دَاوُدَ وَسُليْمَانَ عَليْهما السَّلامُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ [ ص: ٢٦ ].

وَلا شَكَّ أَنَّ الْخَلِيفَةَ الْعَادِلَ يَسْعَدُ بِهِ النَّاسُ فِى الدُّنْيَا، وَيَسْعَدُ هُوَ بِهِمْ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : "سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ؛ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ وأَخْفَى حَتَّى لَا تَعْلَمُ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ" [ الْبُخَارِيُّ ].

وقدْ وضَعَ العُلمَاءُ بعضَ الآدَابِ الَّتِى يَجبُ أنْ يَتَحلَّى بهَا الْخُلفَاءُ فَقَالُوا فِى وصَايَاهمْ:

إنَّ أوَّلَ مَا يَجبُ عَلَى مَن اسْترعَاهُ اللهُ فِي خَلقِهِ وَجعلَهُ مَسئُولا عَنْ رَعيَّتِهِ، أنْ يُقدِّمَ رِضَا اللهِ عزَّ وَجلَّ فِي كُلِّ الأمُورِ، وَأنْ يَتخذَ كَبيرَ الرَّعيةِ لَهُ أبًا وَصَغِيرَهمْ ابنًا وَأنْ يُخفضَ لَهُمْ جَناحَ الذُّلِ مِنَ الرَّحْمةِ وَأنْ يُشَاوِرَهُمْ فِي الأمْرِ.. إلَى غيرِ ذَلكَ مِنَ الآدَابِ الَّتِى يَجبُ أنْ يَتحلَّى بِهَا مَنْ يَقومُ عَلَى أمْرِ النَّاسِ.

وَفِى هَذَا الكِتَابِ سِيرَةٌ لِخَمْسَةٍ مِنَ الْخُلفَاءِ عَلَى مَرِّ العُصُورِ مِمَّنْ كَانَتْ لَهمْ سِيرةٌ حَسنةٌ وَبَلاءٌ عَظيمٌ فِى نُصْرةِ الحقِّ.

# داهية العرب
# معاوية بن أبي سفيان

كَانَ ﷺ مِنْ قَبِيْلَةٍ لَهَا مَكَانَتُها بَيْنَ القَبَائِلِ، لِمَا عُرِفَتْ بِهِ مِنْ شَرَفٍ، وَثَرَاءٍ، وَتِجَارَةٍ.

إِنَّهَا قَبِيْلَةُ "عَبْدُ شَمْسٍ"، وَالَّتِي كَانَتْ تُنَافِسُ بَنِي هَاشِمٍ فِي الرِّفْعَةِ، وَالمَكَانَةِ، وَالشَّرَفِ؛ لِمَا كَانَتْ تَقُومُ بِهِ مِنْ أَعْمَالٍ جَلِيْلَةٍ وَعَظِيْمَةٍ، فِي السِّلْمِ أَوِ الحَرْبِ، قَبْلَ الإِسْلامِ وَبَعْدَهُ.

وَلا بُدَّ أَنْ نَعْلَمَ جَيِّدًا أَنَّ كِلتَا القَبِيْلَتِيْنِ (بَنِي هَاشِمٍ، وَبَنِي عَبْدِ شَمْسٍ) كَانَا عَلَى وِفَاقٍ، وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ عَدَاءٌ أَوْ نِزَاعٌ بَيْنَهُمَا، كَمَا قَدْ يَتَوَهَّمُ البَعْضُ، بَلْ عَلَى العَكْسِ مِنْ ذَلِكَ، جَمَعَتْ بَيْنَهُمَا أَوَاصِرُ صَدَاقَةٍ وَمَوَدَّةٍ، تَجَلَّتْ آثَارُهَا عَلَى أَهْلِ مَكَّةَ، فَهَذَا "حَرْبُ بنُ أُمَيَّةَ"، قَائِدُ قُرَيْشٍ كُلِّهَا يَوْمَ الفُجَّارِ، تَحَمَّلَ الدِّيَاتِ مِنْ مَالِهِ، حِيْنَمَا دَعَا النَّاسَ إِلَى الصُّلْحِ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ، حَتَّى أَنَّهُ رَهَنَ لِسَدَادِهَا وَلَدَهُ "أَبَا سُفْيَانَ".

بَيْدَ أَنَّ بَنِي هَاشِمٍ سَانَدُوا النَّبِيَّ ﷺ وَدَافَعُوا عَنْهُ حِمْيَةً وَعَصَبِيَّةً. أَمَّا بَنُو عَبْدِ شَمْسٍ، فَقَدْ أَشْعَلُوهَا نَارًا حَامِيَةً، فَهَذَا "عُتْبَةُ بنُ رَبِيْعَةَ"، زَعِيْمُ جَيْشِ المشْرِكِيْنَ يَوْمَ بَدْرٍ، وَهَذَا "أَبُو سُفْيَانَ"، قَائِدٌ لِجَيْشِ المُشْرِكِيْنَ يَوْمَ أُحُدٍ، وَقَائِدٌ عَامٌّ لِجيُوشِ المُشْرِكِيْنَ يَوْمَ الأَحْزَابِ.

وَبِقَدْرِ بُغْضِهِمْ لِلإِسْلامِ، وَمُحَارَبَتِهِمْ للنَّبِيِّ ﷺ، بِقَدْرِ مَا دَافَعُوا عَنْ دِيْنِ اللهِ، وَعَمِلُوا عَلَى نَشْرِ الدَّعْوَةِ، وَذَلِكَ حِيْنَ مَنَّ اللهُ ﷻ عَلَيْهِمْ بِنِعْمَةِ الإِسْلامِ، وَشَرَحَ صُدُورَهُمْ لِتَلَقَّى نُورَ السَّمَاءِ الصَّافِي؛ لِيَتَدَفَّقَ فِي قُلُوبِهِمْ، وَيَسْرِي فِي شَرَايِينِهِمْ، وَيَمْضِي فِي جَمِيْعِ أَوْصَالِهِمْ.



كَانَ مُعَاوِيَةُ رضي الله عنه عَلَى عِلْمٍ بِفُنُونِ القِرَاءَةِ وَالكِتَابَةِ، كَمَا كَانَ عَلَى عِلْمٍ بِفُنُونِ الحَرْبِ وَالقِتَالِ؛ فَاتَّخَذَهُ النَّبِيُّ ﷺ كَاتِبًا لِلْوَحْيِ الْمُنَزَّلِ مِنْ قِبَلِ السَّمَاءِ، مُؤْتَمَنًا عَلَى مَا يُمْلِيهِ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَتِلْكَ مَنْقَبَةٌ عَظِيْمَةٌ تَدْعُو إِلَى الفَخْرِ وَالاعْتِزَازِ؛ لأَنَّ أَحَدًا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَصِلَ إِلَى تِلْكَ الْمَهَمَّةِ الجَلِيْلَةِ، إلا إِذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ شَهِدَ لَهُ بِالأَمَانَةِ وَالاسْتِقَامَةِ.. نَعَمْ، إِنَّهُ مُعَاوِيَةُ بنُ أَبِي سُفْيَانَ

يَا لَهُ مِنْ شَرَفٍ فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَشَرَفٍ فِي الإِسْلامِ! أَلَمْ يَقُلِ النَّبِي ﷺ : "النَّاسُ مَعَادِنُ، خِيَارُهُمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ، خِيَارُهُمْ فِي الإِسْلامِ إِذَا فَقِهُوا"؟!

وَهُوَ ابْنُ الصَّحَابِيَّةِ الجَلِيْلَةِ "هِنْدَ بِنْتِ عُتْبَةَ"، وَشَقِيْقُ الصَّحَابِيِّ الجَلِيْلِ "يَزِيْدَ بنِ أَبِي سُفْيَانَ"، البَطَلِ المعْرُوفِ، فَضْلاً عَنْ كَوْنِهِ شَقِيْقًا لأُمِّ المؤْمِنِيْنَ، السّيدَةِ "رَمْلَةَ بِنْتِ أَبِي سُفْيَانَ (أُمّ حَبِيْبَةَ)، زَوْجِ رَسُولِنَا الكَرِيْمِ ﷺ . إِنَّهُ إِذَنْ خَالُ المؤْمِنِيْنَ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ)!

وَلَقَدْ كَانَ للصَّحَابِيِّ الجَلِيْلِ "مُعَاوِيَةَ بنِ أَبِي سُفْيَانَ" مَنَاقِبُ كَثِيْرَةٌ، شَهِدَ لَهُ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ وَدَعَا لَهُ بِخَيْرٍ.. قَالَ ﷺ: "اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ هَادِيًا مَهْدِيًّا". وَقَالَ ﷺ أَيْضًا: "اللَّهُمَّ عَلِّمْ مُعَاوِيَةَ الكِتَابَ وَالحِسَابَ، وَقِهِ العَذَابَ". يَقُولُ مُعَاوِيَةُ ﷺ: "مَا زِلْتُ أَطْمَعُ فِي الخِلافَةِ مُنْذُ قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ: يَا مُعَاوِيَةَ إِذَا مَلَكْتَ فَأَحْسِنْ".

لَقَدْ كَانَ ﷺ يَمْتَلِكُ الصِّفَاتِ الرَّائِعَةَ، التِي تَدْفَعُ بِهِ إِلَى مَنْزِلَةِ القَادَةِ وَالعُظَمَاءِ؛ فَلَقَدْ كَانَ رَجُلاً طَوِيْلاً أَبْيَضَ، جَمِيْلاً مَهِيْبًا، حَتَّى أَنَّ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ ﷺ كَانَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ وَيَقُولُ: "هَذَا كِسْرَى العَرَبِ"!

كَمَا قَالَ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ: "لا تَكْرَهُوا إِمْرَةَ مُعَاوِيَةَ؛ فَإِنَّكُم لَوْ فَقَدْتُمُوهُ لَرَأَيْتُمْ الرُّءُوسَ تَنْدُرُ عَنْ كَوَاهِلِهَا"!

وَيَقُولُ المقْبَرِيُّ: تَعجَبُونَ مِنْ دَهَاءِ كِسْرَى، وَفِيْكُمْ مُعَاوِيَة؟! ذَلِكَ أَنَّ مُعَاوِيَةَ بنَ أَبِي سُفْيَانَ كَانَ يُعَدُّ مِنْ أَشْهَرِ الدُّهَاةِ، فَضْلاً عَنْ كَوْنِهِ حَلِيمًا شَدِيْدَ الحِلْمِ، كَرِيمًا فَائِقَ الكَرَمِ.

وَانظُرُوا إِلَى قُبَيْصَةَ بنِ جَابِرٍ حِينَ قَالَ: "صَحِبْتُ مُعَاوِيَةَ بنَ أَبِي سُفْيَانَ، فَمَا رَأَيْتُ رَجُلاً أَثْقَلَ حِلْمًا، وَلا أَبْطَأَ جَهْلاً، وَلا أَبْعَدَ أَنَاةً مِنْهُ"! وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يَقُولُ لِمُعَاوِيَةَ حِيْنَ صَارَ أَمِيْرًا لِلمُؤْمِنِيْنَ: "وَاللهِ لَتَسْتَقِيْمَنَّ بِنَا يَا مُعَاوِيَةُ، أَوْ لَنُقَوِّمَنَّكَ". فَيَقُولُ ﷺ: بِمَاذَا؟ فَيَقُولُ: "بِالخَشَبِ"! فَيَقُولُ ﷺ: إِذَنْ نَسْتَقِيْمُ!



لَمَّا تَوَلَّى الصِّدِّيقُ أَبُو بَكْرٍ ﷺ أَمْرَ الخِلافَةِ، وَلاهُ قِيَادَةَ جَيْشٍ مَدَدًا لأَخِيْهِ يَزِيْدَ، وَأَمَّرَهُ أَنْ يَلْحَقَ بِهِ، فَكَانَ مُعَاوِيَةَ غَازِيًا تَحْتَ إِمْرَةِ أَخِيهِ يَزِيْدَ، وَكَانَ عَلَى مُقَدِّمَتِهِ فِي فَتْحِ صَيْدا، وعرقه، وَجْبِيْلَ، وَبَيْرُوت، وَلَمَّا أَظْهَرَ مِنَ البُطُولَةِ الفَائِقَةِ، وَالشَّجَاعَةِ الهائِلَةِ، وَلاه عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ وِلايَةَ الأُرْدُنّ. وَفِي عَهْدِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ ﷺ جَمَعَ لِمُعَاوِيَةَ الشَّامَ كُلَّهَا، فَصَارَ جَمِيْعُ الوِلاةِ فِي تِلْكَ الأَمْصَارِ يَأْتَمِرُونَ بِأَمْرِهِ، وَيَسِيْرُونَ فِي طَاعَتِهِ.

بَدأَتِ الدَّوْلَةُ الأُمَوِيَّةُ لِمُؤَسِّسِهَا "مُعَاوِيَةَ بن أَبِي سُفْيَانَ"، عَامَ ٤١هـ، وَهُوَ العَامُ الذِي يُطْلِقُونَ عَلَيْهِ عَامَ الجَمَاعَةِ، فَمَا أَنْ تَوَلَّى مُعَاوِيَةُ الأَمْرَ حَتَّى قَامَ بِتَحْرِيكِ الجيُوشِ الإِسْلامِيَّةِ لِلجِهَادِ فِي سَبِيْلِ اللهِ. وَقَدْ شَهِدَتْ تِلْكَ الفَتْرَةُ تَوَسُّعًا كَبِيْرًا فِي العَالَمِ الإِسْلامِيِّ؛ فَقَدِ امْتَدَّ فِي الشَّرْقِ لِيَشْمَلَ "إِيْرَانَ، وَالهِنْدَ، وَالصِّيْنَ، وَآسْيَا الوسْطَى، وَامْتَدَّ فِي الغَرْبِ لِيَشْمَلَ إِفْرِيْقيَا، وَالأَنْدَلُسَ..

وَهُوَ أَوَّلُ مُسْلِمٍ رَكِبَ بَحْرَ الرُّوْمِ للغَزْوِ؛ لِيَصِيْرَ "بَحْرَ المسْلِمِيْنَ" بَعْدَ ذَلِكَ؛ مِنْ كَثْرَةِ الانْتِصَارَاتِ عَلَى الرُّوْمِ، كَمَا فَتَحَ جَزَائِرَ يُونَانَ والدَّرْدَنِيْلِ، وَحَاصَرَ القُسْطَنْطِيْنِيَّةَ بَرًّا وَبَحْرًا، سَنَةَ ٤٨هـ؛ لِتَتَحَقَّقَ فِيْهِ بِشَارَةُ النَّبِيِّ ﷺ : "أَنَّ أَوَّلَ جَيْشٍ يَغْزُو القُسْطَنْطِيْنِيَّةَ فِي الجَنَّةِ".

وَتُوفِّيَ مُعَاوِيَةُ ﷺ فِي دِمَشْقَ، سَنَةَ ٦٠هـ، بَعْدَ أَنْ حَكَمَ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَلَقَدْ رَوَى مُعَاوِيَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ١٣٠ حَدِيْثًا..



# درة الخلفاء
# هارون الرشيد

فَرْحَةٌ عَارِمَةٌ تَجْتَاحُ شَوَارِعَ المسْلِمِيْنَ فِي شَتَّى البِقَاعِ.. أمَّا بَغْدَادُ - مَدِيْنَةُ السَّلامِ - عَاصِمَةُ الخِلافَةِ الإِسْلامِيَّةِ، فَقَدْ خَرَجَتْ عَنْ بَكْرَةِ أَبِيْهَا، يَتَقَدَّمُ النَّاسَ مَوْكِبٌ حَافِلٌ لِلْخَلِيْفَةِ العَبَّاسِيِّ "المَهْدِي"؛ لاسْتِقْبَالِ وَلَدِهِ الشَّابِّ اليَافِعِ، قَائِدِ جُيُوشِ المسْلِمِينَ، هَارُونَ الرَّشِيْدِ، وَالذِي اسْتَطَاعَ - رَغْمَ صِغَرِ سِنِّهِ- ( ١٧سَنَةً) أَنْ يُلْحِقَ بِجُيُوشِ الرُّومِ هَزِيْمَةً نَكْرَاءَ.

وَهِي لَيْسَتِ المرَّةَ الأُولَى التِي يَنْتَصِرُ فِيْهَا هَارُونُ الرَّشِيْدُ كُلَّ هَذَا الانْتِصَارِ؛ فَقَدِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَنْجَحَ فِي جَمِيْعِ المهَامِ التِي كَلَّفَهُ بِهَا الخَلِيْفَةُ المهْدِيُّ.

كَانَ الخَلِيْفَةُ العَبَّاسِيُّ يَقُومُ بِتَدْرِيْبِ أَوْلادِهِ مُنْذُ نُعُومَةِ أَظْفَارِهِمْ عَلَى المهَامِ الصَّعْبَةِ، وَالتِي تَحْتَاجُ إِلَى صَلابَةِ الرِّجَالِ، وَحِكْمَةِ الشُّيُوخِ.. إِنَّهُم يَعْلَمُونَ أَنَّ الخِلافَةَ لَيْسَتْ بِالأَمْرِ السَّهْلِ، وَهَذَا مَا جَعَلَ الخَلِيْفَةَ المهْدِيَّ يَدْفَعُ بِوَلَدِهِ الصَّغِيْرِ إِلَى أَيْدِي العُلَمَاءِ وَالفُقَهَاءِ، وَيَعْهَدُ إِلَيْهِمْ بِتَرْبِيَتِهِ وَتَعْلِيْمِهِ؛ فَحَفِظَ القُرْآنَ، ثُمَّ دَرَسَ اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ وَالشِّعْرَ وَالأَدَبَ، وَتَفَوَّقَ حَتَّى صَارَ بَارِعًا حَاذِقًا.

هُنَالِكَ اطْمَأَنَّ قَلْبُ الخَلِيْفَةِ، وَابْتَدَأَ يُكَلِّفُهُ بِالْمَهَامِ الأَكْثَرِ صُعُوبَةٍ.

لَمَّا بَلَغَ هَارُونُ السَّابِعَةَ عَشَرَ مِنْ عُمْرِهِ كَلَّفَهُ "المهْدِيُّ" بِقِيَادَةِ الجيُوشِ المتَّجِهَةِ صَوْبَ الرُّوْمِ، وَأَرْسَلَ مَعَهُ أَحَدَ الأَصْدِقَاءِ المخْلِصِيْنَ؛ لِيُشِيْرَ عَلَيْهِ، وَيَرْجِعَ إِلَيْهِ عِنْدَ الضَّرُوْرَةِ.



وَكَانَ ضِمْنَ الجيْشِ الذِي يَقُودُهُ هَارُونُ الرّشِيْدُ الكَثِيْرُ مِنَ الوزَرَاءِ وَالقُوَّادِ وَالكُبَرَاءِ، وَمِنْهُمْ: مُوسَى بنُ عِيْسَى، وَعَبْدُ الملِكِ بنُ صَالِحٍ، وَخَالِدُ بنُ بَرْمَكَ، وَسُلَيْمَانُ وَالحَسَنُ ابْنَا بَرْمَكَ.

وَقَدِ اسْتَطَاعَ هَارُونُ أَنْ يَتَوَغَّلَ دَاخِلَ حُدُودَ الرُّوْمِ، وَيَنْزِلَ أحدَ رَساتيقِ الرُّومِ، فِيْهِ قَلْعَةٌ يُقَالُ لَهَا "سَمَالُو"، أَقَامَ عَلَيْهَا ثَمَانِيَةً وَثَلاثِيْنَ يَوْمًا، حَتَّى فَتَحَهَا الله عَلَيْهِمْ، بَعْدَ مَا أَصَابَ أَهْلَهَا الهَلَعُ وَالجَزَعُ، مِنْ طُولِ الحِصَارِ وَقَسْوَتِهِ؛ فَاضطُرُّوا إلَى الاسْتِسْلامِ وَفَتْحِ المدِيْنَةِ.

بَيْدَ أَنَّهُم اشْتَرَطُوا عَلَيْهِ شُرُوطًا قَبِلَهَا هَارُوْنُ، وَهِيَ أَلا يُقْتَلُوا أَوْ يُرَحَّلُوا، وَلا أَنْ يُفَرَّقَ بَيْنَهُم، فَأَجَابَهُم هَارُونُ، وَأَعْطَاهُم مَا اشْتَرَطُوا لأَنْفُسِهِمْ، وَوَفَّى لَهُم بِعَهْدِهِمْ.

عَادَ البَطَلُ الصَّغِيْرُ هَارُونُ بِجَيْشِهِ سَالِمًا غَانِمًا لِيَجِدَ حَفَاوَةً بَالِغَةً وَتَكْرِيْمًا مِنْ وَالِدِهِ الخَلِيْفَةِ المهْدِيِّ، فَعَانَقَهُ بِفَرَحٍ وَسُرُوْرٍ، ثُمَّ كَافَأَهُ بِأَنْ وَلَّاهُ بِلادَ المغْرِبِ، وَأَذْرَبِيْجَانَ، وَأَرْمِيْنِيَّةَ.

هَا قَدْ صَارَ هَارُونُ الرَّشِيْدُ خَلِيْفَةً للمُسلِمِيْنَ، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنَ اعْتِلائِهِ عَرْشَ الخِلافَةِ، إلَّا أَنَّ شَخْصِيَّتَهُ المهِيْبَةَ قَدِ اتَّضَحَتْ مَلامِحُهَا أَكْثَرَ؛ فَهُوَ بِتَوَاضُعِهِ الجَمِّ، وَكَرَمِهِ الذِي صَارَ مَضْرِبَ الأَمْثَالِ، وَعَدْلِهِ، وَوَرَعِهِ، وَبُكَائِهِ المتَوَاصِلِ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، وَشِدَّةِ احْتِرَامِهِ للعُلَمَاءِ وَالفُقَهَاءِ، صَارَ مَحْبُوبًا مِنْ رَعِيَّتِهِ، وَبَاتَ الجَمِيْعُ يَعِيْشُونَ فِي سَعَادَةٍ وَهَنَاءٍ.



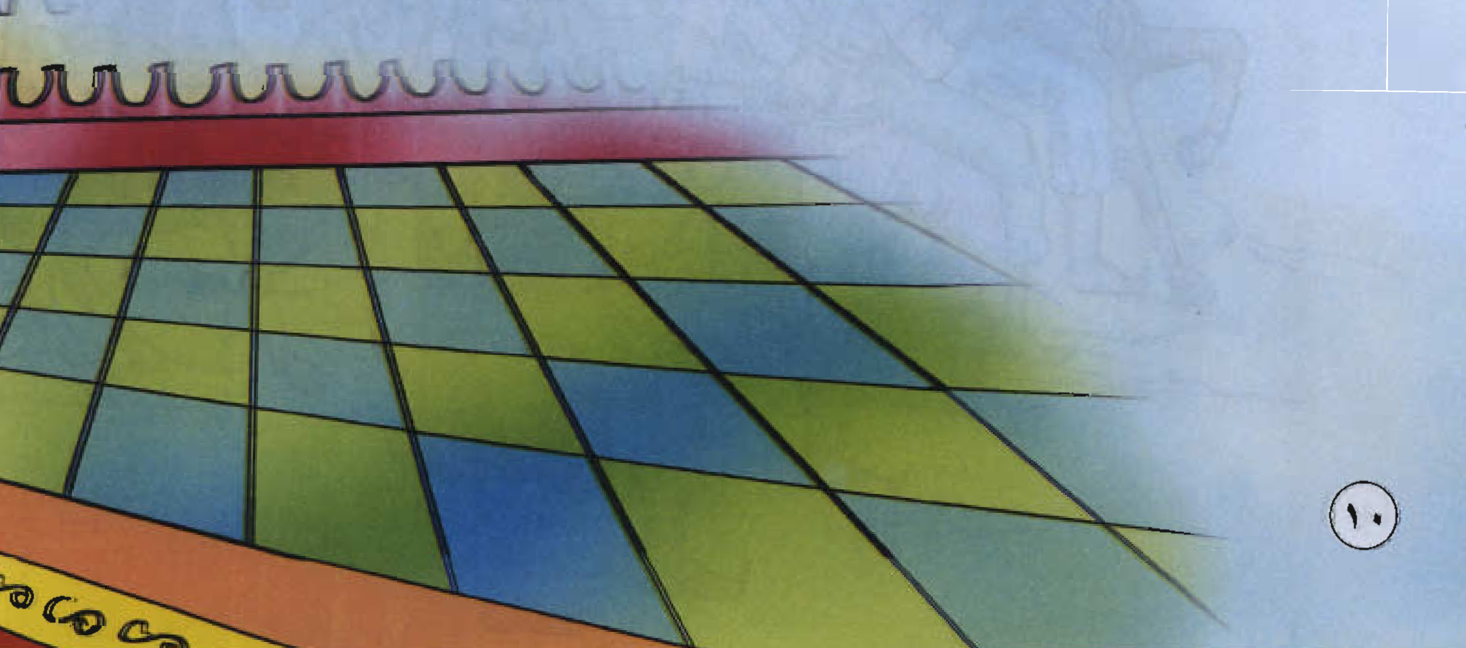
وَفِي عَهْدِ الرَّشِيْدِ اتَّسَعَتْ رِقْعَةُ الخِلافَةِ الإِسْلامِيَّةِ، وَنَشَرَتْ شَمْسُ الإِسْلامِ نُورَهَا السَّاطِعَ عَلَى الكَثِيْرِ مِنْ دُوَلِ المشْرِقِ وَالمغْرِبِ؛ فَدَانَتْ لَهُ رِقَابُ الجَبَابِرَةِ، وَقَذَفَ اللهُ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ وَالفَزَعَ لِمُجَرَّدِ ذِكْرِ اسْمِهِ.

لَمْ يُهَادِنِ الرَّشِيْدُ الأَعْدَاءَ يَوْمًا، وَلَمْ يُحَاوِلْ فِي وَقْتٍ مِنَ الأَوْقَاتِ أَنْ يَكْسِرَ سَيْفَ الجِهَادِ، بَلْ جَعَلَ جُلَّ هَمِّهِ الجِهَادَ فِي سَبِيْلِ اللهِ، حَتَّى أَنَّهُ كَانَ يَحُجُّ عَامًا، وَيَغْزُو فِي سَبِيْلِ اللهِ عَامًا.

وَهَذِهِ صُورَةٌ مِنَ الصُّوَرِ الرَّائِعَةِ، بَلِ المُذْهِلَةِ التِي حَدَثَتْ فِي عَهْدِهِ، وَالتِي لا يَزَالُ صَدَاهَا يَتَرَدَّدُ بِمُنْتَهَى القُوَّةِ فِي أَسْمَاعِ الزَّمَانِ، عُنْوَانًا لِعَظَمَةِ الرَّشِيْدِ، وَسُلْطَانِ دَوْلَةِ الإِسْلامِ:

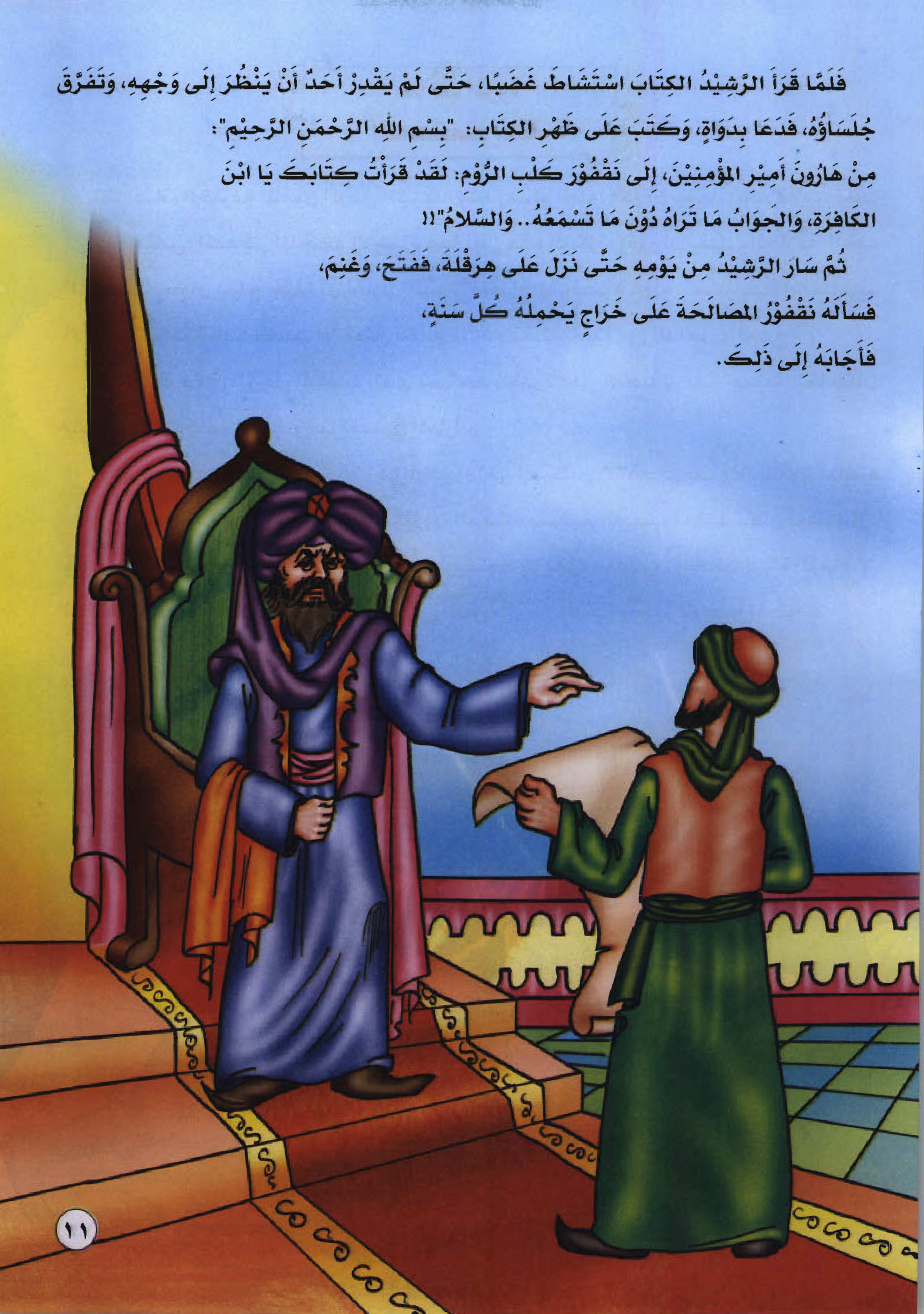
"كَانَ قَدْ تَمَّ تَنْصِيْبُ نَقْفُورَ إِمْبَرَاطُوْرًا عَلَى الرُّوْمِ بِاسْمِ "نَقْفُوْرَ الأَوَّلِ"، وَكَانَتْ هُنَاكَ اتِّفَاقَاتٌ وَمُعَاهَدَاتٌ بَيْنَ الرَّشِيْدِ وَبَيْنَ الرُّوْمِ، وَالتِي مَثَّلَهَا مِنْ جَانِبِهِمْ الملِكَةُ "إِيْرِيْن"، المُلَقَّبَةُ بِأُغُسْطَه، بَعْدَ أَنْ جَاسَ المُسْلِمُونَ خِلالَ دِيَارِهِمْ، وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً، فَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ بُدٌّ مِنَ الاسْتِسْلامِ وَالنُّزُولِ عَلَى شُرُوطِ الرَّشِيْدِ؛ حَتَّى تُنْقِذَ نَفْسَهَا وَبِلادَهَا مِنْ بَرَاثِنِ المُسْلِمِيْنَ.

بَيْدَ أَنَّ نَقْفُوْرَ الأَوَّلَ - الذِي تَوَلَّى إِمْبَرَاطُورِيَّةَ الرُّوْمِ - بَعَثَ بِرِسَالَةٍ تَسِيْلُ حِقْدًا وَغَضَبًا، مُعْلِنًا فِيْهَا نَقْضَهُ لِلْعَهْدِ، بَلْ وَمُطَالِبًا الرَّشِيْدَ أَنْ يَرُدَّ مَا أَخَذَهُ مِنْ جِزْيَةٍ وَزِيَادَةٍ، فَكَتَبَ يَقُولُ: "مِنْ نَقْفُوْرَ مَلِكِ الرُّوْمِ، إِلَى هَارُونَ الرَّشِيْدِ مَلِكِ العَرَبِ، أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ المَلِكَةَ التِي كَانَتْ قَبْلِي أَقَامَتْكَ مَقَامَ الرُّخِّ، وَأَقَامَتْ نَفْسَهَا مَقَامَ البَيْدَقِ؛ فَحَمَلَتْ إِلَيْكَ مِنْ أَمْوَالِهَا مَا كُنْتَ حَقِيْقًا بِحَمْلِ أَضْعَافِهَا إِلَيْهَا، لَكِنَّ ذَلِكَ ضَعْفُ النِّسَاءِ وَحُمْقُهُنَّ، فَإِذَا قَرَأْتَ كِتَابِي هَذَا، فَارْدُدْ مَا حَصَلَ لَكَ مِنْ أَمْوَالِهَا، وَافْتَدِ نَفْسَكَ بِمَا تَقَعُ بِهِ المصَادَرَةُ لَكَ، وَإِلا فَالسَّيْفُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ".



فَلَمَّا قَرَأَ الرَّشِيْدُ الكِتَابَ اسْتَشَاطَ غَضَبًا، حَتَّى لَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى وَجْهِهِ، وَتَفَرَّقَ جُلَسَاؤُهُ، فَدَعَا بِدَوَاةٍ، وَكَتَبَ عَلَى ظَهْرِ الكِتَابِ: "بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ": مِنْ هَارُونَ أَمِيْرِ المؤْمِنِيْنَ، إِلَى نَقْفُوْرَ كَلْبِ الرُّوْمِ: لَقَدْ قَرَأْتُ كِتَابَكَ يَا ابْنَ الكَافِرَةِ، وَالجَوَابُ مَا تَرَاهُ دُوْنَ مَا تَسْمَعُهُ.. وَالسَّلَامُ"!!

ثُمَّ سَارَ الرَّشِيْدُ مِنْ يَوْمِهِ حَتَّى نَزَلَ عَلَى هِرَقْلَةَ، فَفَتَحَ، وَغَنِمَ، فَسَأَلَهُ نَقْفُوْرُ المصَالَحَةَ عَلَى خَرَاجٍ يَحْمِلُهُ كُلَّ سَنَةٍ، فَأَجَابَهُ إِلَى ذَلِكَ.



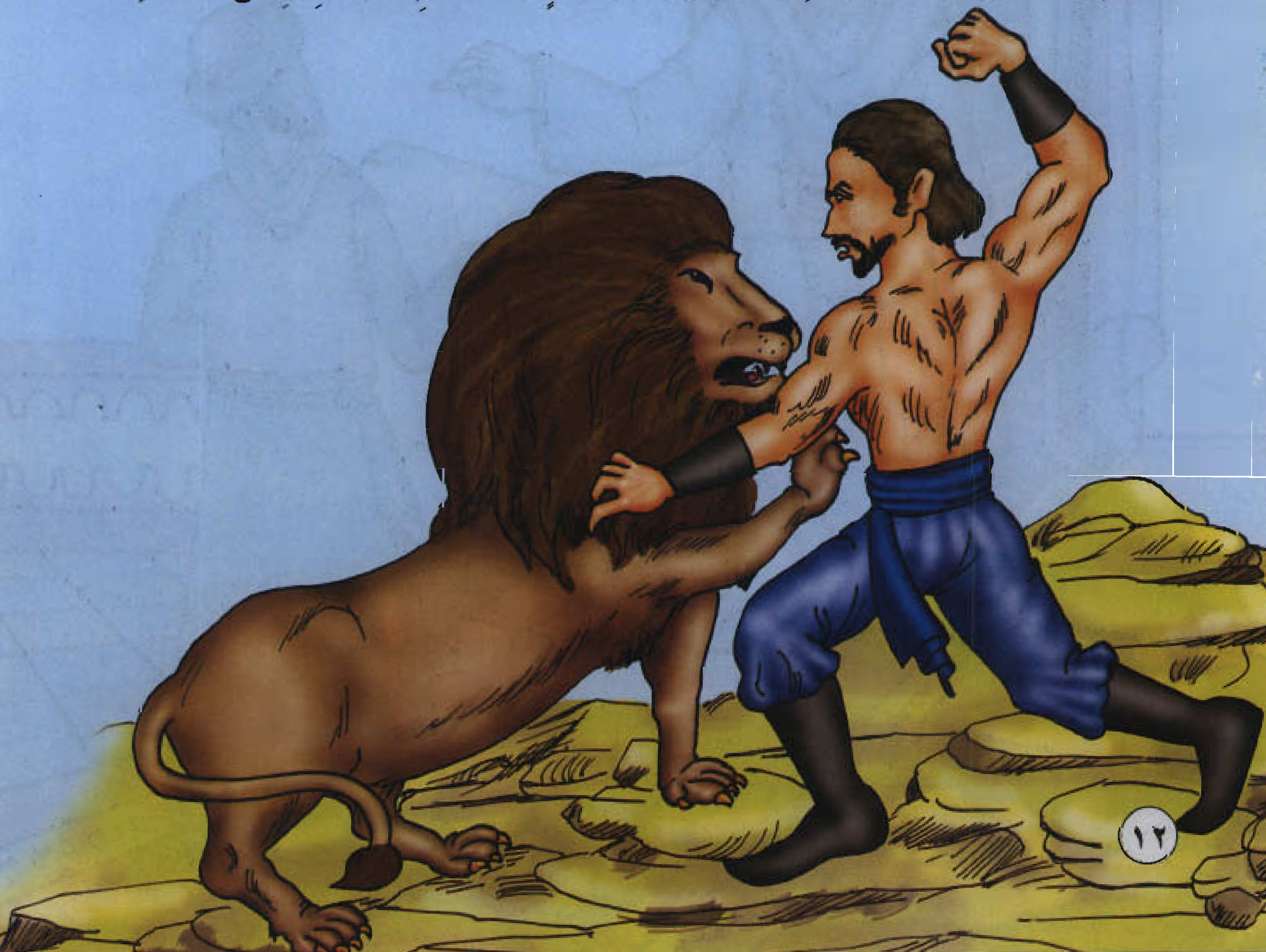
# صاحب المروة
# المعتصم بالله

لَمَّا أَصَابَ الخَلِيْفَةَ المَأْمُونَ المَرَضُ الشَّدِيْدُ، وَشَعَرَ بِدُنُوِ أَجَلِهِ، فَكَّرَ أَنْ يَجْعَلَ الخِلافَةَ مِنْ بَعْدِهِ لِوَلَدِهِ العَبَّاسِ، لَكِنَّهُ فِي اللحْظَةِ الأَخِيْرَةِ عَدَلَ عَنْ هَذِهِ الفِكْرَةِ، وَقَرَّرَ أَنْ يَعْهَدَ بِالخِلافَةِ لأَخِيْهِ "المعْتَصِمِ". كَانَ يَعْلَمُ جَيِّدًا أَنَّ أَحْوَالَ الدّولَةِ تَحْتَاجُ لِشَخصِيَّةٍ قَوِيَّةٍ، تَمْتَازُ بِصِفَاتٍ تُنَاسِبُ الأَوْضَاعَ الرَّاهِنَةَ. لَقَدْ كَانَتِ الأَخْطَارُ تُحْدِقُ بالخِلافَةِ العَبَّاسِيَّةِ مِنَ الدَّاخِلِ وَالخَارِجِ.

وَالمعْتَصِمُ كَانَ الرَّجُلَ المناسِبَ الذِي يَمْتَلِكُ القُدْرَةَ عَلَى التَّصَدّى لَهُمْ جَمِيعًا؛ لِمَا كَانَ يَمْتَلِكُهُ مِنْ شَجَاعَةٍ فَائِقَةٍ، وَخِبْرَةٍ بِفُنُونِ المَعَارِكِ.

وَتَمَّتِ البَيْعَةُ فِي ١٩مِنْ رَجَبٍ ٢١٨هـ، الموَافِقِ ١٠مِنْ أُغُسْطُسَ ٨٣٣م، أَيْ بَعْدَ وَفَاةِ المأمُونِ مُبَاشَرَةً.

وَالمُعتَصِمُ بِاللهِ مِنْ أُولَئِكَ الذِيْنَ يُثِيْرُونَ الدَّهْشَةَ بِقُوَّتِهِمُ الجَسَدِيَّةِ؛ فَقَدْ كَانَ بِوسْعِهِ أَنْ يُصَارِعَ الأُسُودَ مُجَرَّدًا، وَأَنْ يَلْوِي عُنُقَ الأَسَدِ وَيَفْتِكَ بِهِ بِقُوَّةِ سَاعِدَيْهِ. وَكَانَتْ أَسِنَّةُ الرِّمَاحِ لا تَنَالُ مِنْ عَضُدَيْهِ، بَلْ كَانَ يَحْمِلُ أَكْثَرَ مِنْ أَلْفِ رَطْلٍ مِنَ اللحْمِ وَيَسِيْرُ بِهِ بِضْعَ خُطْوَاتٍ.



وَلأَنَّهُ سَرِيْعَ الغَضَبِ، فَقَدْ جَعَلَ "ابنَ الزَّيَّاتِ" وَزِيْرًا مُلازِمًا لَهُ، فَكَانَ ابْنَ الزَّيَّاتِ - بِمَا يَمْلِكُ مِنْ عِلْمٍ وَحِكْمَةٍ وَأَنَاةٍ- بِمَثَابَةِ العَقْلِ بِالنِّسْبَةِ للجَسَدِ؛ فَطَالَمَا هَدَّأَ مِنْ ثَوْرَتِهِ، وَحَذَّرَهُ مِنْ عَوَاقِبِ غَضَبِهِ، فَكَانَ نِعْمَ النَّاصِحُ الأَمِيْنُ، مِمَّا جَعَلَهُ مَصْدَرَ ثِقَةِ المُعْتَصِمِ؛ فَعَهِدَ إِلَيْهِ بِأَدَقِّ الأُمُورِ، وَاسْتَعَانَ بِرَأْيِهِ وَمَشُورَتِهِ فِي الكَثِيْرِ مِنَ المَوَاقِفِ وَالأَحْدَاثِ.

كَانَتِ الخِلافَةُ العَبَّاسِيَّةُ فِي عَهْدِ المُعْتَصِمِ قَدْ وَصَلَتْ إِلَى أَقْصَى دَرَجَاتِ الرُّقِيِّ وَالازْدِهَارِ، لَقَدِ اسْتَطَاعَ المُعْتَصِمُ أَنْ يَقْضِيَ عَلَى أَكْبَرِ فِتْنَةٍ ظَهَرَتْ فِي تَارِيْخِ الدَّوْلَةِ العَبَّاسِيَّةِ، وَالتِي شَغَلَتِ الخِلافَةَ أَكْثَرَ مِنْ عِشْرِيْنَ سَنَةً، وَهِي فِتْنَةُ "بَابِكَ الخُرَّمِيّ"، الذِي تَزَعَّمَ طَائِفَةً، كانت لها اعتِقَادَاتٌ غَرِيْبَةٌ، عنَ الإِسْلامِ، وَلا تَمُتُّ إِلَيْهِ بِأَيَّةِ صِلَةٍ.

وَقَدِ انتَشَرَتْ تِلْكَ الاعتقادات وَاسْتَفْحَلَ خَطَرُهَا لِيَصِلَ إِلَى هَمَدَانَ، وَأَصْبَهَانَ، وَبِلادِ الأَكْرَادِ، وَجُرْجَانَ، وَأَصْبَحَتْ خَطَرًا عَظِيْمًا يُهَدِّدُ أَرْكَانَ الدَّوْلَةِ العَبَّاسِيَّةِ. وَلأَنَّ أَفْكَارَهَا هَدَّامَةٌ تُرِيْدُ تَقْوِيْضَ الإِسْلامِ، فَقَدْ سَانَدَتْهَا دَوْلَةُ الرُّومِ، فَهُمْ يَعْلَمُونَ جَيِّدًا أَنَّ الإِسْلامَ قَدِ انْتَشَرَ بِقُوَّةِ الإِيْمَانِ، وَالمُعْتَقَدِ الصَّحِيْحِ لأَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ، وَالذِي تَمَكَّنَ مِنْ قُلُوبِ أَصْحَابِهِ؛ فَصَارُوا كَالصَّوَاعِقِ الحَارِقَةِ، تَحْرِقُ وَتُخَرِّبُ وَتُدَمِّرُ كُلَّ مَنْ تُسَوِّلُ لَهُ نَفْسُهُ المَسَاسَ بِهَذَا الدِّيْنِ. وَلِمَ لا، وَهَذَا الدِّينُ العَظِيمُ هُوَ الذِي رَفَعَهُم إِلَى أَقْصَى دَرَجَاتِ الرِّفْعَةِ وَالشُّمُوخِ؟!

وَهَكَذَا حَاوَلَ الأَعْدَاءُ مِنَ الدَّاخِلِ وَالخَارِجِ تَنْفِيْذَ مُخَطَّطِهِمُ القَبِيْحِ، لَكِنَّ الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- خَذَلَهُمْ، وَسَاقَ إِلَيْهِمُ المُعْتَصِمَ، رَجُلَ المَعَارِكِ، فَلَمْ يَغْمُضْ لَهُ جِفْنٌ حَتَّى شَتَّتَ شَمْلَهُمْ، وَمَزَّقَ جَمْعَهُم، بَعْدَ حُرُوبٍ طَاحِنَةٍ اسْتَمَرَّتْ أَرْبَعَ سَنَوَاتٍ، تَمَكَّنَ فِيْهَا القَائِدُ البَارِعُ "الأَفْشِيْنُ" مِنْ إِخْمَادِهَا، وَالقَبْضِ عَلَى ذَلِكَ الزِّنْدِيقِ "بَابِكَ الخُرَّمِيّ"، فِي ١٠ مِنْ شَوَّالٍ ٢٢٢هـ، ١٦ مِنْ سِبْتَمْبر ٨٣٧م.

وَكَانَتْ هَذِهِ الفِتْنَةُ مِنْ أَعْظَمِ الفِتَنِ التِي تَعَرَّضَتْ لَهَا الدَّوْلَةُ العَبَّاسِيَّةُ، وَكَادَتْ تَعْصِفُ بِهَا؛ فَقَدْ قُتِلَ مِنْ أَجْلِ القَضَاءِ عَلَيْهَا آلافُ المسلِمِيْنَ، قَدَّرَهُم "الطَّبَرِيُّ" فِي تَارِيْخِهِ بِنَحْوِ مِائَتَيْنِ وَخَمْسِيْنَ أَلْفَ مُسْلِمٍ، وَأَنْفَقَتِ الدَّوْلَةُ العَبَّاسِيَّةُ مِنْ أَجْلِهَا مَلايِينَ الدَّرَاهِمِ وَالدَّنَانِيْرِ.

وَقَدْ عَمِلَ المُعْتَصِمُ عَلَى سَحْقِ جَمِيْعِ الفِتَنِ الدَّاخِلِيَّةِ فِي جَمِيْعِ أَرْجَاءِ الخِلافَةِ الإِسْلامِيَّةِ، وَأَخْمَدَ الكَثِيْرَ مِنَ الثَّوْرَاتِ.

اهْتَمَّ المُعْتَصِمُ اهتِمَامًا بَالِغًا بِالأَحْوَالِ الدَّاخِلِيَّةِ؛ مِنْ تِجَارَةٍ، وَعِمَارَةٍ، وَصِنَاعَةٍ، وَتَرْجَمَةٍ، وَأَدَبٍ، حَتَّى صَارَتْ خِلافَتُهُ دُرَّةً فِي جَبِيْنِ الزَّمَانِ، وَإِحْدَى مَفَاخِرِ دَوْلَةِ بَنِي العَبَّاسِ.

وَوَصَلَ اهْتِمَامُ المعْتَصِمِ بِفُنُونِ العِمَارَةِ أَنْ قَامَ بِتَأْسِيسِ مَدِيْنَتِهِ الرَّائِعَةِ "سُرَّ مَنْ رَأَى" سَامَرَّاء؛ لِتَبْعَثَ فِي قُلُوبِ مَنْ يَرَاهَا البَهْجَةَ وَالسُّرُورَ؛ لِمَا بَلَغَتْ فِيْهِ مِنْ عُلُوٍّ فِي التَّخْطِيْطِ العُمْرَانِيِّ وَالتَّصْمِيْمِ، وَمَهَارَةٍ فِي البِنَاءِ وَالتَّشْيِيدِ؛ فَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهَا الصُّنَّاعُ المَهَرَةُ مِنَ البَنَّاءِين، وَالحَدَّادِيْنَ، وَالنَّجَّارِيْنَ، وَأَصْحَابِ المِهَنِ المُخْتَلِفَةِ؛ لِيَقُومُوا بِتَأْسِيْسِ المدِيْنَةِ عَلَى أَحْدَثِ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ فَنُّ تَأسِيْسِ المُدُنِ. بَلْ هِي نَفْسُهَا قَدْ صَارَتْ مَحَطَّ أَنْظَارِ العَالَمِ؛ لاتِّسَاعِ شَوَارِعِهَا، وَضَخَامَةِ مَبَانِيْهَا، وَرَوْعَةِ قُصُورِهَا، فَكَانَتْ - بِحَقٍّ - عَلامَةً مُبْهِرَةً مِنْ عَلامَاتِ التَّقَدُّمِ العُمْرَانِيِّ وَالحَضَارِيِّ الذِي ظَهَرَ فِي تَارِيْخِ الدَّوْلَةِ العَبَّاسِيَّةِ.

كَانَتِ دَوْلَةُ الرُّومُ تَتَرَبَّصُ بِدَوْلَةِ الإِسْلامِ الدَّوَائِرَ، وَكَانُوا يَبْعَثُونَ بِصَنَائِعِهِمْ وَعُمَلائِهِمْ مِنَ الخَوَنَةِ وَالجَوَاسِيْسِ؛ لِيَتَعَرَّفُوا عَلَى أَحْوَالِ البِلادِ وَالعِبَادِ، وَيَجْمَعُوا الأَخْبَارَ مِنْ هُنَا وَهُنَاك، فَلَمَّا تَأَكَّدَ مَلِكُ الرُّومِ مِنَ انْشِغَالِ الخَلِيْفَةِ العَبَّاسِيِّ المعْتَصِمِ بِاللهِ بِالفِتَنِ الدَّاخِلِيَّةِ وَالعَمَلِ عَلَى قَمْعِهَا، اسْتَغَلَّ الفُرْصَةَ، وَخَرَجَ بِجَيْشٍ عَرَمْرَمٍ يَصِلُ تِعْدَادُهُ إِلَى أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ أَلْفِ جُنْدِيٍّ، فَهَاجَمَ شَمَالَ الشَّامِ، وَالجَزِيْرَةِ، وَدَخَلَ مَدِيْنَةَ "زِبَطْرَةَ"، مَسْقَطَ رَأْسِ الخلِيْفَةِ العَبَّاسِيِّ، وَاسْتَطَاعُوا تَحْطِيْمَ حُصُونِهَا، وَقَتْلَ كُلِّ مَنْ فِيْهَا مِنَ الرِّجَالِ، وَانْتَقَلُوا إِلَى ملطية المجَاوِرَةِ، فَأَغَارُوا عَلَيْهَا وَعَلَى الكَثِيْرِ مِنَ الحُصُونِ، وَمَثَّلَ الرُّومُ بِمَنْ وَقَعَ تَحْتَ يَدَيهِمْ مِنَ المسْلِمِيْنَ، فَسَمَّلُوا أَعْيُنَهُم، وَقَطَّعُوا آذَانَهُم وَأُنُوفَهُمْ، وَأَسَرُوا أَكْثَرَ مِنْ أَلْفِ امْرَأَةٍ مِنَ المسْلِمَاتِ.

وَمَا أَنْ وَصَلَتِ هَذِهِ الأَنْبَاءُ البَشِعَةُ إِلَى مَسَامِعِ الخَلِيْفَةِ المعْتَصِمِ، وَتِلْكَ الأَفْعَالُ الوَحْشِيَّةُ التِي ارتَكَبَتْهَا جُيُوشُ الكُفْرِ وَالإِلْحَادِ، حَتَّى أَمَرَ بِعِمَامَةِ الغُزَاةِ فَاعْتَمَّ بِهَا، وَزَأَرَ يَأْمُرُ بِالجِهَادِ وَالاسْتِعْدَادِ للحَرْبِ.



وَيَذْكُرُ بَعْضُ الرُّوَاةِ أَنَّ امْرَأةً مِمَّنْ وَقَعْنَ فِي الأَسْرِ صَرَخَتْ قَائِلَةً "وَا مُعْتَصِمَاهُ"، فَنُقِلَ إِلَيْهِ ذَلِكَ الحَدِيْثُ، وَالقَدَحُ فِي يَدِهِ يُرِيْدُ أَنْ يَشْرَبَهُ، فَنَحَّاهُ جَانِبًا، وَنَادَى بالاسْتِعْدَادِ للحَرْبِ.

خَرَجَ المعْتَصِمُ بِجَيْشٍ كَثِيْفٍ، يَزْأَرُ بِكُلِّ عُنْفُوانِ الغَضَبِ، مُجَهَّزٍ بِكُلِّ آلاتِ الحَرْبِ وَالحِصَارِ، ثُمَّ انطَلَقَ مِنْ فَوْرِهِ حَتَّى وَصَلَ مِنْطَقَةَ الثُّغُورِ، فَزَلْزَلَ أَرْكَانَهَا، وَهَدَمَ أَسْوَارَ أَنْقَرَةَ، ثُمَّ اتَّجَهَ الجَيْشُ إِلَى عَمُورِيةَ، وَضَرَبَ حِصَارًا عَنِيْفًا عَلَى المدِيْنَةِ المنِيْعَةِ دَامَ سِتَّةَ أَشْهُرٍ عَلَى التَّقْرِيْبِ، أَذَاقَهُم فِيْهَا الأَهْوَالَ حَتَّى اسْتَسْلَمَتِ المدِيْنَةُ، وَدَخَلَهَا المسْلِمُونَ وَهُمْ يَهْتِفُونَ (اللّٰه أَكْبَرُ)، وَكَانَ ذَلِكَ فِي ١٧مِنْ رَمَضَانَ سَنَةَ ٢٢٣هـ، بَعْدَ أَنْ قُتِلَ مِنْ أَهْلِهَا ثَلاثُونَ أَلْفًا، وَتَحَصَّلَ المسْلِمُونَ عَلَى غَنَائِمَ هَائِلَةٍ وَعَظِيْمَةٍ، وَعَادُوا مُتَوَّجِيْنَ بِالنَّصْرِ المُبِيْنِ الذِي أَثْلَجَ صُدُورَ المسْلِمِيْنَ.



# فاتح القسطنطينية
# محمد الفاتح

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :"لَتَفْتَحُنَّ القُسْطَنْطِيْنِيَّةُ.. فَلَنِعْمَ الأَمِيْرُ أَمِيْرُهَا، وَلَنِعْمَ الجَيْشُ ذَلِكَ الجَيْشُ"، [أحمد].

كَانَ لا يَزَالُ غضًّا، أَخْضَرَ العُودِ، حِيْنَ عهِدَ وَالِدُهُ السُّلْطَانُ مُرَادُ الثَّانِي إِلَى مَجْمُوْعَةٍ مِنْ كِبَارِ العُلَمَاءِ لِيَتَوَلَّوا تَعْلِيْمَهُ وَرِعَايَتَهُ، وَكَانَ عَلَى رَأْسِهِمْ الشَّيْخُ الجَلِيْلُ "آق شَمْسُ الدِّيْن"، و"المُلاَّ الكورَانِيُّ"، وَهَذَا مَا سَاعَدَ فِي بِنَاءِ شَخْصِيَّتِهِ، وَجَعَلَهُ يَمْتَلِكُ قَدْرًا كَبِيْرًا مِنَ العُلُومِ وَالثَّقَافَةِ وَالأَدَبِ، فَضْلاً عَنْ حِفْظِهِ للْقُرْآنِ الكَرِيْمِ، وَالسُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ المُطَهَّرَةِ.

وَقَدْ نَجَحَ الشَّيْخُ شَمْسُ الدِّينِ فِي أَنْ يَغْرِسَ فِي قَلْبِهِ رُوحَ الجِهَادِ، وَيُذَكِّرَهُ بِبِشَارَةِ النَّبِيّ مُحَمَّدٍ بِفَتْحِ القُسْطَنْطِيْنِيَّةِ، وَكَانَ يَقُولُ لَهُ دَائِمًا: أَشْعُرُ يَا مُحَمَّدٌ أَنَّكَ أَنْتَ ذَلِكَ الأَمِيْرُ الذِي سَيَقُومُ بِفَتْحِ القُسْطَنْطِيْنِيَّةِ، وَالذِي بَشَّرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ وَكَانَ ذَلِكَ يَدْفَعُ بِهِ إِلَى مُضَاعَفَةِ الجَهْدِ أَكْثَرَ فِي التَّدْرِيْبِ عَلَى القِتَالِ. لَمْ يَدَّخِرْ جَهْدًا وَلا وَقْتًا إلا وَقَضَاهُ إِمَّا بَيْنَ يَدَي أُسْتَاذِهِ وَمُعَلِّمِهِ، يَتَشَرَّبُ العِلْمَ مِنْ بيْنِ ثَنَايَاهُ، أَوْ بَيْنَ يَدَي رَبِّهِ يُصَلِّى وَيَبْتَهِلُ إِلَيهِ.

وَهُوَ بِجَانِبِ ذَلِكَ كَانَ يَمْتَلِكُ ذَكَاءً حَادًّا، وَقُدْرَةً عَلَى قِرَاءَةِ الوَاقِعِ وَالحَيَاةِ بِشَكْلٍ جَيِّدٍ، وَهَذَا مَا جَعَلَهُ يَفُوْقُ أَقْرَانَهُ مُنْذُ نُعُوْمَةِ أَظْفَارِهِ، فِي العُلُومِ التِي كَانَ يدرسها فِي مَدْرَسَةِ الأُمَرَاءِ، حيث تَعَلَّمَ أُصُولَ الفِقْهِ، وَدَرَسَ الرِّيَاضِيَاتِ، وَالفَلَكَ، وَفُنُونَ الحَرْبِ، إِضَافَةً إِلَى مَهَارَاتِهِ فِي تَعَلُّمِ العَرَبِيَّةِ، وَإِجَادَتِهِ لِلفَارِسِيَّةِ، وَاللاتِيْنِيَّةِ، وَاليُونَانِيَّةِ، وَالتُّرْكِيَّةِ، وَشَغَفِهِ الزَّائِدِ بِقِرَاءَةِ التَّارِيْخِ، وَشِدَّةِ إِعْجَابِهِ بِالقَادَةِ وَالفَاتِحِيْنَ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِيْنَ، فَكَانَ يَتَمَثَّلُهُمْ دَائِمًا، وَيَخْطُو خُطَاهُمْ.



وَلا غرْوَ! فقَدْ كانَ عَالِيَ الهِمَّةِ، مَوْفُورَ النّشَاطِ، حَتَّى أنَّ وَالِدَهُ السّلْطَانَ مُرَادَ الثّانِي كَانَ يَدْعُوهُ لِلمُشَارَكَةِ فِي الجِهَادِ.

فِي لَحْظَةٍ مَا، أَحَسَّ السُّلْطَانُ مُرَادُ الثّانِي بِحَالَةٍ مِنَ الزّهْدِ، فَقَرَّرَ أنْ يَتَنَحَّى عَنْ السّلْطَنَةِ، وَأنْ يَعْتَزِلَ النّاسَ، وَيَعِيْشَ لِلصّلاةِ، وَقِرَاءَةِ القُرْآنِ، وَالذّكْرِ. وَكَلّفَ وَلَدَهُ الأَمِيْرَ مُحَمَّدًا أنْ يَتَوَلّى مَقَالِيدَ الأُمُورِ.

كَانَتْ مُفَاجَأَةً أَصَابَتِ الجَمِيْعَ بِالدّهْشَةِ؛ إذْ كَيْفَ لِلأمِيْرِ الصّغِيرِ أنْ يَتَحَمَّلَ أعْبَاءَ السّلْطَنَةِ المُتَرَامِيَةِ الأَطْرَافِ، وَهُوَ لا يَزَالُ غَضًّا طَرِيًّا، وَالأَعْدَاءُ يَتَرَبَّصُونَ بِدَوْلَةِ الإِسْلامِ مِنْ كُلّ جَانِبٍ. لَقَدْ حَاوَلُوا إِثْنَاءَ السّلْطَانِ عَنْ هَذَا الأَمْرِ الخَطِيْرِ، لَكِنّهُ رَفَضَ الرّجُوعَ فِي قَرَارِهِ، فَامْتَثَلُوا لِلأَمْرِ وَهُمْ مُضْطَرُّونَ.

صَارَ الصّغِيْرُ مُحَمَّدٌ السّلْطَانَ مُحَمَّدَ الثّانِي وَهُوَ لَمْ يَبْلُغْ بَعْدُ أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَنَةً، بَيْدَ أنَّ الأَعْدَاءَ كَانُوا يُرْسِلُونَ بِأَعْيُنِهِمْ (الجَوَاسِيسِ)؛ لِيَتَعَرَّفُوا عَلَى تَطَوّرَاتِ الدّوْلَةِ العُثْمَانِيَّةِ، فَلَمَّا أَيْقَنُوا بِاعْتِزَالِ السّلْطَانِ مُرَادِ الثّانِي الحُكْمَ، وَخُلُودِهِ إِلَى السّكِيْنَةِ وَالعِبَادَةِ بِمَغْنِسيَا، فِي آسْيَا الصّغْرَى، انْفَجَرُوا جَمِيْعًا بِالضّحِكِ، وَرَاحُوا يُخَطّطُونَ لِمُهَاجَمَةِ المُسْلِمِيْنَ.

وَبِالفِعْلِ تَضَافَرَتْ جُهُودُ النّصَارَى، وَنَقَضُوا عُهُودَهُمُ التِي أَخَذُوهَا مَعَ السّلْطَانِ مُرَادٍ، وَحَشَدُوا الجُيُوشَ، وَحَاصَرُوا مَدِيْنَةَ "فَارنَا" البلْغَارِيّةَ الوَاقِعَةَ عَلَى سَاحِلِ البَحْرِ الأَسْوَدِ.

شَعَرَ المُسْلِمُونَ بِالخَطَرِ الزّاحِفِ نَحْوَهُم، وَعَلَى الفَوْرِ أَرْسَلُوا إِلَى السّلْطَانِ مُرَادِ الثّانِي يُعْلِمُوهُ الخَبَرَ، فَاضطُرَّ السّلْطَانُ أنْ يَرْتَدِي لأمَةَ الجِهَادِ، وَيَخْرُجَ لِلزّوْدِ عَنْ حِيَاضِ الإِسْلامِ، وَرُدَّ هَؤُلاءِ النّصَارَى عَلَى أَعْقَابِهِمْ دَاخِرِيْنَ، بَعْدَ أنْ قُتِلَ مَلِكُهُمْ تَحْتَ سَنَابِكِ الخَيْلِ، وَجَزَّ المُسْلِمُونَ رَأْسَهُ، وَقَامُوا بِرَفْعِهَا عَلَى أَسِنَّةِ الرّمَاحِ؛ لِتُثِيْرَ الهَلَعَ وَالذُّعْرَ فِي قُلُوبِ النّصَارَى، وَتَفُتَّ فِي عَضُدِهِمْ، وَتَهُدَّ مِنْ عَزِيْمَتِهِمْ، بَعْدَ مَعْرَكَةٍ شَرِسَةٍ اسْتَمَرَّتْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ، كَادُوا يَنْتَصِرُونَ فِيْهَا عَلَى المُسْلِمِيْنَ، لَولا أنْ ثَبّتَ اللهُ الذِيْنَ آمَنُوا، وَأَغْدَقَ عَلَيْهِمْ بِنَصْرِهِ المُبِيْنِ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي قوصوه، عَامَ ٨٥٢هـ، ١٤٤٨م.

وَلَمَّا بَلَغَ الثّانِيَةَ وَالعِشْرِينَ مِنْ عُمْرِهِ صَارَ هُوَ السّلْطَانَ، بَعْدَ أنْ تَشَبَّعَ بِالصّفَاتِ النّبِيْلَةِ، وَالقِيَمِ العَالِيَةِ الكَرِيْمَةِ. إنّهُ يَسِيْرُ عَلَى مِنْوَالِ مَنْ سَبَقُوهُ مِنْ سَلاطِيْنِ آلِ عُثْمَانَ، وَقَدْ زَادَ عَنْهُم السّلْطَانُ مُحَمَّدُ الثّانِي بِاهْتِمَامَاتِهِ البَالِغَةِ بِإِقَامَةِ المَدَارِسِ، وَتَنْظِيْمِ الجَيْشِ، وَتَقْدِيْمِ كُلّ الوَسَائِلِ الحَدِيْثَةِ التِي تَدْفَعُ بِالدّوْلَةِ الإِسْلامِيَّةِ إِلَى المُقَدّمَةِ

بَدَأَ السّلْطَانُ مُحَمَّدٌ يَعْمَلُ عَلَى إِعْدَادِ الجَيْشِ بِكُلِّ مَا يَلْزَمُ مِنْ أَدَوَاتِ الحَرْبِ الحَدِيْثَةِ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ، وَجَمَعَ مِنْ حَوْلِهِ الصّنَّاعَ المَهَرَةَ، وَالمُهَنْدِسِيْنَ المُتَمَيِّزِيْنَ، وَرَاحَ يَسْتَعِيْنُ بِهِمْ فِي عَمَلِ الأَسْلِحَةِ المبْتَكَرَةِ، والمدافِعِ العَجِيْبَةِ. وَقَدْ ظَهَرَ مِنْ بَيْنِ الصُّفُوفِ مُهَنْدِسٌ مِنْ أَصْلٍ مَجَرِيٍّ يُدْعَى "أُوربَانَ"، تَوَلَّى عَمَلَ مَدَافِعَ ضَخْمَةٍ، لَمْ يُوجَدْ لَهَا مَثِيْلٌ مِنْ قَبْلُ، ثُمَّ قَامَ بِصُنْعِ مَدْفَعٍ هَائِلٍ كَانَ يَحْتَاجُ إِلَى مِئَاتِ الثِيْرَانِ لِكَي تَجُرَّهُ؛ فَأَطْلَقُوا عَلَيْهِ "المَدْفَعَ السّلْطَانَ"، حَيْثُ بَلَغَ وَزْنُهُ سَبْعَمِائَةِ طِنٍّ، وَكَانَ وَاسِعَ الفُوَّهَةِ، وَتَزِنُ القَذِيْفَةُ الوَاحِدَةُ مِنْهُ اثْنَي عَشَرَ أَلْفَ رَطْلٍ. وَقَدْ قَطَعَ الطّرِيْقَ مِنْ أدرنة إِلَى مَوْضِعِهِ أَمَامَ أَسْوَارِ القُسْطَنْطِيْنِيَّةِ فِي شَهْرَيْنِ، وَهُوَ طَرِيْقٌ يُقْطَعُ عَادَةً فِي يَوْمَيْنِ فَقَطْ.

كَمَا قَامَ بِبِنَاءِ سُفنٍ جَدِيْدَةٍ فِي بَحْرِ "الدَّرْدَنِيْلِ"، وَشَيَّدَ قَلْعَةً ضَخْمَةً عُرِفَتْ بِاسْمِ قَلْعَةِ "روملى حصار"؛ لِتَتَحَكَّمَ فِي مَضِيْقِ البُوسْفُورِ، وَأَرْسَلَ بِالأَعْيُنِ لِتَجْتَازَ المِيَاهَ العَمِيْقَةَ، وَتَدْخُلَ المَدِيْنَةَ المَنِيْعَةَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا؛ لِيَدْرُسُوا أَحْوَالَهَا، وَيَتَعَرَّفُوا عَلَى مَنَاطِقِ الضّعْفِ فِيْهَا. وَقَدِ اسْتَطَاعَ هَؤُلاءِ أَنْ يَعُودُوا بِمَعْلُومَاتٍ هَامَّةٍ جِدًّا، اسْتَفَادَ مِنْهَا السّلْطَانُ مُحَمَّدٌ فِي خُطَطِهِ.

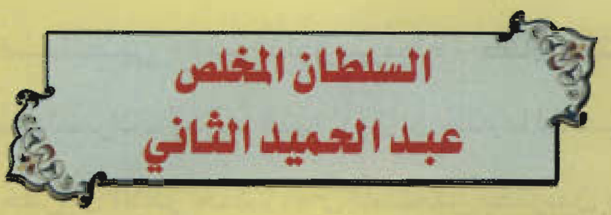
وَكَانَتْ لِلسّلْطَانِ مُحَمَّدٍ الثّانِي خُطَطٌ تَنُمُّ عَنْ مَدَى عَبْقَرِيَّتِهِ وَذَكَائِهِ، لَقَدْ قَامَ بِعَمَلِ أَنْفَاقٍ عَمِيْقَةٍ وَعَدِيْدَةٍ تَحْتَ الأَرْضِ، تُؤَدِّي إِلَى القُسْطَنْطِيْنِيَّةِ مِنَ الدّاخِلِ، فَكَانَ الأَتْرَاكُ يُفَاجَأُونَ بِمَنْ يَبْرُزُ إِلَيْهِمْ بَغْتَةً مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ، فَمَلأَهُمُ الخَوْفُ.



وَالشّيءُ المؤَكَّدُ هُوَ أَنَّ قُسْطَنْطِيْنَ - إِمْبرَاطُوْرَ بِيْزَنْطَةَ - كَانَ يَهْتَمُّ بِنَفْسِهِ، وَلَمْ يَكُنْ يَعْبَأُ بِالشّعْبِ، فَكَانَ يَفْرِضُ عَلَيْهِمُ الضّرَائِبَ وَيَزِيْدُ فِيْهَا، دُوْنَ أَنْ يَأْبَهَ بِالْمُسْلِمِيْنَ الذِيْنَ يَتَقَدَّمُونَ نَحْوَ العَاصِمَةِ البِيْزَنْطِيَّةِ، فَلَمَّا أَحَسَّ أَنَّ الأَمْرَ خَطِيْرٌ، وَأَنَّ المُسْلِمِيْنَ يَقْتَرِبُونَ مِنْ أَسْوَارِ القُسْطَنْطِيْنِيَّةِ بِكُلِّ عَزِيْمَةٍ وَإِصْرَارٍ، رَكِبَهُ الخَوْفُ وَالفَزَعُ، وَلَمْ يَعْرِفْ مَاذَا يَصْنَعُ، فَقَدْ كَانَ يَظُنُّ أَنَّ الأَسْوَارَ الضَّخْمَةَ المَنِيْعَةَ سَوْفَ تَمْنَعُ عَنْهُ أَيَّ خَطَرٍ مِنَ الخَارِجِ، لَمْ يَكُنْ أَمَامَ قُسْطَنْطِيْنَ إلا أَنْ يَصِيْحَ مُعْلِنًا الاسْتِغَاثَةَ وَطَلَبَ العَوْنِ مِنْ أُورُوبا، بَعْدَ أَنْ نَفَدَتْ كُلُّ طَاقَاتِهِ.

وَلأَنَّ السُّفُنَ الإِسْلامِيَّةَ لَمْ تَسْتَطِعْ التّحَرُّكَ صَوْبَ المَدِيْنَةِ القَدِيْمَةِ؛ بِسَبَبِ تِلْكَ السَّلاسِلِ العِمْلاقَةِ، فقد نَقَلَ العَبْقَرِيُّ الفَاتِحُ السُّفُنَ، وقَامَتْ بِجَرِّهَا الخُيُولُ وَالثِّيْرَانُ مِنَ البُسْفُورِ إِلَى البَرِّ، حَيْثُ تَمَّ سَحْبُهَا عَلَى طَرِيْقٍ مِنَ الأَخْشَابِ المدْهُوْنَةِ بِالزّيُوتِ وَالشَّحْمِ، وَإِذَا بِالأَعْدَاءِ يُفَاجَأُونَ بِأَكْثَرَ مِنْ سَبْعِيْنَ سَفِيْنَةً تَتَّجِهُ صَوْبَ المَعْبَرِ المَائِيِّ لِتُسَيْطِرَ عَلَيْهِ، وَسَطَ تَهْلِيْلِ المُسْلِمِيْنَ وَتَكْبِيْرِهِمْ. امْتَلأَتْ قُلُوبُ المسْلِمِيْنَ بِالحمَاسِ وَاليقِيْنِ فِي نَصْرِ اللهِ، بَعْدَ حِصَارٍ للمَدِيْنَةِ دَامَ أَكْثَرَ مِنْ خَمْسِيْنَ يَوْمًا. وَكَانَ السّلْطَانُ مُحَمَّدٌ يَمُرُّ عَلَى جُنُودِهِ لِيُذَكِّرَهُمْ بِبِشَارَةِ النّبِيِّ ﷺ وَيَخْطُبَ فِيْهِمْ، فَكَانُوا يَزْدَادُونَ حَمَاسًا فَوْقَ حَمَاسِهِمْ، فَيُوَاصِلُونَ جِهَادَهُم بِكُلِّ عَزِيْمَةٍ وَإِصْرَارٍ، وَأَخِيْرًا تَهَدَّمَ جَانِبٌ مِنَ الأَسْوَارِ، وَعَبَرَ المسْلِمُونَ وَهُمْ يَهْدِرُونَ بِأَصْوَاتٍ قَوِيَّةٍ: " اللهُ أَكْبَرُ.. اللهُ أَكْبَرُ".

وَهَكَذَا فُتِحَتِ القُسْطَنْطِيْنِيَّةُ، لِيَصِيْرَ السّلْطَانُ مُحَمَّدُ الثّانِي هُوَ الفَاتِحَ الذِي بَشَّرَ بِهِ النّبِيُّ ﷺ.






عِنْدَمَا يَذْكُرُ التَّارِيخُ اسْمَكَ
يَكُوْنُ الحَقُّ فِي جَانِبَكَ..
وَمَعَكَ أَيُّهَا السُّلْطَانُ العَظِيْمُ
كُنَّا نَحْنُ الذِيْنَ افْتَرَيْنَا دُوْنَ حَيَاءٍ
قُلْنَا: إِنَّ السُّلْطَانَ ظَالِمٌ، وَإِنَّ السُّلْطَانَ مَجْنُونٌ
قُلْنَا: لابُدَّ مِنَ الثَّوْرَةِ عَلَى السُّلْطَانِ
وَصَدَّقْنَا كُلَّ مَا قَالَهُ لَنَا الشَّيْطَانُ.

هَذَا مَا قَالَهُ الشَّاعِرُ "رِضَا تَوْفِيْق"، وَالذِي يُعَدُّ مِنْ أَكْبَرِ خُصُومِ السُّلْطَانِ عَبْدِ الحَمِيْدِ وَمُعَارِضِيْهِ، لَكِنَّهُ تَأَكَّدَ لَهُ، كَمَا تَأَكَّدَ لِكَثِيْرِيْنَ آخَرِيْنَ، أَنَّ السُّلْطَانَ عَبْدَ الحَمِيْدِ كَانَ عَظِيْمًا بِكُلِّ مَا يَحْمِلُ هَذَا اللفْظُ مِنْ مَعْنًى.

كَانَتِ الدَّوْلَةُ العُثْمَانِيَّةُ فِي حَالَةِ ضَعْفٍ، ذَلِكَ أَنَّ السَّلاطِيْنَ الذِيْنَ امْتَلَكُوا زِمَامَ الحُكْمِ كَانُوا يَهْتَمُّونَ بِأَنْفُسِهِمْ وَشُئُونِهِمْ الخَاصَّةِ، أَكْثَرَ مِنْ اهْتِمَامِهِمْ بِالدَّوْلَةِ، فَاطْمَأَنَّتْ قُلُوبُ الأَعْدَاءِ مِنْ دُوَلِ الغَرْبِ وَأُوروبَّا، عَلَى أَنَّ "الإِمْبرَاطُورِيَّةَ العُثْمَانِيَّةَ " سَوْفَ تَلْفُظُ أَنْفَاسَهُ الأَخِيْرَةَ قَرِيْبًا جِدًّا، وَعَلَى كُلٍّ مِنْهُم أَنْ يَشْحَذَ سِلاحَهُ، لِيَنْقَضَّ عَلَى جُزْءٍ مِنْ هَذَا الجَسَدِ المُسْلِمِ بَعْدَ تَمْزِيْقِ أَوْصَالِهِ.



فِي ذَلِكَ الوَقْتِ وِلِدَ عَبْدُ الحَمِيْدِ، وَكَانَ ذَلِكَ يَوْمَ الأَرْبِعَاءِ ١٦شَعْبَانَ ١٢٥٨هـ ( ٢٢سِبْتَمبر ١٨٤٢م).

وَكَانَ عَبْدُ الحَمِيْدِ يَمْتَازُ بِرَجَاحَةِ العَقْلِ، وَشِدَّةِ الذَّكَاءِ.. يَهْتَمُ بِالقِرَاءَةِ وَاقْتِنَاءِ الكُتُبِ النَّادِرَةِ وَالمَرَاجِعِ النَّفِيْسَةِ، خَاصَّةً الكُتِبِ التِي تَتَحَدَّثُ عَنْ تَارِيْخِ الإِسْلامِ، وَاهْتِمَامِهِ بِتَارِيْخِ الدَّوْلَةِ العُثْمَانِيَّةِ مُنْذُ بَدْءِ تَأْسِيْسِهَا.

وَكَانَ عَبْدُ الحَمِيْدِ مَيَّالاً لِلصَّمْتِ أَغْلَبَ الأَحْيَانِ، لا يَتَكَلَّمُ إِلا إِذَا طُلِبَ مِنْهُ ذَلِكَ، فَكَانَ حَكِيْمًا فِي صَمْتِهِ، مُدْهِشًا فِي كَلامِهِ. وَلَمَّا تُوفِّيَ وَالِدُهُ السُّلْطَانُ عَبْدُ المَجِيْدِ الأَوَّلُ كَانَ عُمْرُهُ ١٨عَامًا، فَصَارَ وَلِيَّ عَهْدٍ ثَانٍ لِعَمِّهِ "عَبْدِ العَزِيْزِ"، الذِي اسْتَمَرَّ فِي الخِلافَةِ مَا يَقْرُبُ مِنْ خَمْسَةَ عَشَرَ عَامًا، وَقَدْ تَعَلَّمَ وَاسْتَفَادَ مِنْهُ الكَثِيْرَ وَالكَثِيْرَ.

وَالذِي تَمَيَّزَ بِهِ عَبْدُ الحَمِيْدِ، هُوَ تَمَسُّكُهُ الشَّدِيْدُ بِالقِيْمِ الإِسْلامِيَّةِ، وَحِرْصُهُ عَلَى إِقَامَةِ الشَّعَائِرِ الدِّينِيَّةِ، وَمُلازَمَتُهُ لِلقُرآنِ الكَرِيْمِ.

وَلَمَّا قُتِلَ السّلْطَانُ عَبْدُ العَزِيْزِ فِي مُؤَامَرَةٍ دَبَّرَهَا لَهُ بَعْضُ رِجَالِ القَصْرِ، اعْتَلَى العَرْشَ مِنْ بَعْدِهِ "مُرَادُ الخَامِسُ"، شَقِيْقُ عَبْدِ الحَمِيدِ، لَكِنَّهُ كَانَ عَلَى النَّقِيْضِ مِنْ أَخِيْهِ، فَلَمْ يَعْتَنِ بِوَاجِبَاتِ الخِلافَةِ، وَكَانَ يَبْحَثُ عَنْ رَغَبَاتِهِ لِيُشْبِعَهَا، لَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَمِرَّ إِلا ثَلاثَةً وَتِسْعِينَ يَوْمًا فَقَطْ، هِيَ كُلُّ عُمْرِهِ عَلَى العَرْشِ، حَيْثُ تَرَكَهُ لإِصَابَتِهِ بِاخْتِلالٍ عَقْلِيٍّ.



صَارَ عَبْدُ الحَمِيْدِ الآنَ هُوَ السُّلْطَانَ، وَلَقَدْ بُويِعَ بِالخِلافَةِ فِي ٩ شَعْبَانَ ١٢٩٣هـ (٣١ أُغُسْطُس ١٨٧٦م)، وَهُوَ الخَلِيْفَةُ السَّابِعُ وَالعِشْرُونَ فِي خُلَفَاءِ بَنِي عُثْمَانَ.

حِيْنَ تَوَلّى الخِلافَةَ، كَانَتِ الحَرْبُ وَشِيْكَةً بَيْنَ الدَّوْلَةِ العُثْمَانِيَّةِ وَرُوسيَا، كَمَا أَنَّ الأَحْدَاثَ فِي العَالَمِ كَانَتْ تُنْبِئُ بِالغَضَبِ والاضطِرَابَاتِ، وَبِالأَخَصِّ فِي بِلادِ البَلْقَانِ. كُلُّ ذَلِكَ كَادَ يَعْصِفُ بِالدَّوْلَةِ العُثْمَانِيَّةِ، وَكَانَ عَلَى السُّلْطَانِ عَبْدِ الحَمِيْدِ أَنْ يَبْحَثَ عَنْ وَسَائِلَ يُقَوِّي بِهَا ضَعْفَ الدَّوْلَةِ، كَي يَسْتَعِيْدَ بِذَلِكَ هَيْبَتَهَا، خَاصَّةً بَعْدَ هَزِيْمَةِ العُثْمَانِيّينَ أَمَامَ الرُّوْسِ.

كَانَ عَلَى رَأْسِ اهْتِمَامَاتِ السّلْطَانُ عَبْدُ الحَمِيْدِ تَأْلِيْفُ قُلُوبِ المُسْلِمِيْنَ فِي مَشَارِقِ الأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا، بِإِقَامَةِ "الجَامِعَةِ الإِسْلامِيَّةِ"، وَالَّتِي تَضُمُّ أَبْنَاءَ المُسْلِمِيْنَ، وَتَرْبِطُ بَيْنَهُمْ بِأَوَاصِرَ مِنَ المَحَبَّةِ وَالإِخَاءِ، وَتَدْفَعُهُمْ لِيَكُوْنُوا صَفًّا وَاحِدًا أَمَامَ أَعْدَاءِ الدَّوْلَةِ؛ وَقَدْ نَجَحَ فِي ذَلِكَ إِلَى حَدٍّ بَعِيْدٍ. كما عَمِلَ عَلَى الأَخْذِ بِأَسْبَابِ الحَضَارَةِ الحَدِيْثَةِ وَالتّقَدُّمِ، بِإِقَامَةِ المَدَارِسِ، وَدُوْرِ المُعَلِّمِيْنَ، وَالجَامِعَاتِ، وَدَارِ العُلُومِ السّيَاسِيَّةِ، وَالفُنُونِ، وَالمَتَاحِفِ، وَالمَكْتَبَاتِ، وَمَدَارِسِ الطّبِّ، وَالمُسْتَشْفَيَاتِ، وَمَرَاكِزِ البَرِيْدِ، وَمَدِّ أَنَابِيْبِ مِيَاهِ الشُّرْبِ، وَالغُرَفِ التِّجَارِيَّةِ وَالصّنَاعِيَّةِ وَالزّرَاعِيّةِ، وَمَعَامِلِ الخَزَفِ. إِلَى جَانِبِ ذَلِكَ رَبَطَ أَجْزَاءَ الدّوْلَةِ بـ ٣٠ ألف كم مِنَ البَرْقِ وَالهَاتِفِ، وَاهْتَمَّ بِتَسْلِيْحِ الجَيْشِ اهْتِمَامًا بَالِغًا وَبِتَدْرِيْبِهِ عَلَى أَسَالِيْبِ القِتَالِ الحَدِيْثَةِ عَلَى يَدِ المُدَرِّبِيْنَ الأَلْمَانِ.

وَمِنَ المَوَاقِفِ العَظِيْمَةِ أَيْضًا التِي تُنْسَبُ للسُّلْطَانِ عَبْدِ الحَمِيْدِ، وَالتِي سَيَذْكُرُهَا لَهُ التّارِيْخُ دَائِمًا بِكُلِّ خَيْرٍ، هُوَ مَوْقِفُهُ الصُّلْبُ، فِي وَجْهِ الأَطْمَاعِ اليَهُودِيَّةِ، وَتَصَدّيْهِ لَهُمْ بِكُلِّ حَزْمٍ.

كَانَتِ الدّولَةُ العُثْمَانِيَّةُ فِي حَاجَةٍ إِلَى المَالِ لِتَسُدَّ عَجْزَهَا، وَقَد اسْتَغَلَّ اليَهُوْدُ ذَلِكَ، فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ أَحَدَ اليَهُودِ لِيُغْرِيَهُ بِالأَمْوَالِ الطّائِلَةِ؛ حَتَّى يَرْضَخَ لِمَطَالِبِهِم بِبِنَاءِ وَطَنٍ قَوْمِيٍّ لَهُم عَلَى أَنْقَاضِ الدّوْلَةِ الفِلَسْطِيْنِيَّةِ، لَكِنَّهُ رَفَضَ وَقَامَ بِطَرْدِهِمْ.

لَكِنّهُم لَمْ يَيْأَسُوا وَعَادُوا إِلَيْهِ مَرَّةً أُخْرَى بِزَعَامَةِ "هِرْتِزل"، رَئِيْسِ الجَمْعِيَّةِ الصّهيُونِيَّةِ العَالَمِيَّةِ، وَصَاحِبِ كِتَابِ (الدّولَةِ اليَهُودِيَّةِ). وَبَعْدَ إِلْحَاحٍ مُتَكَرِّرٍ، وَوَسَاطَةٍ قَامَ بِهَا سَفِيْرُ النّمْسَا فِي إِسْتَانبُولَ، فِي المُحَرَّم ١٣١٩هـ (مايو ١٩٠١م)، عَرَضَ هِرْتِزل عَلَى السّلطَانِ تَوْطِيْنَ اليَهُودِ فِي فِلَسْطِيْنَ، وَفِي المُقَابِلِ سَيُقَدّمُ اليَهُودُ فِي الحَالِ عِدَّةَ مَلايِيْن مِنَ الليرَاتِ العُثْمَانِيَّةِ الذّهَبِيَّةِ كَهَدِيَّةٍ ضَخْمَةٍ للسّلْطَانِ، وَسَيُقْرِضُونَ الخَزِيْنَةَ العُثْمَانِيَّةَ مَبْلَغَ مِليُونَي لِيْرَةٍ أُخْرَى.

لَكِنَّ السّلْطَانَ عَبْدَ الحَمِيْدِ زَمْجَرَ بِكُلّ عُنْفُوَانِ الغَضَبِ قَائِلاً: لا أَقْدِرُ أنْ أَبِيْعَ وَلو قَدَمًا وَاحِدًا مِنَ البِلادِ؛ لأَنَّهَا لَيْسَتِ لِي، بَلْ لِشَعْبِي. لَقَدْ حَصَلَ شَعْبِي عَلَى هَذِهِ الإمْبَرَاطُورِيّةِ بِإِرَاقَةِ دِمَائِهِمْ، وَقَدْ غَذّوهَا فِيْمَا بَعْدُ بِدِمَائِهِم، وَسَوفَ نُغَطّيْهَا بِدِمَائِنَا قَبْلَ أنْ نَسْمَحَ لأَحَدٍ بِاغْتِصَابِهَا مِنّا.. الإمْبَرَاطُورِيَّةُ التّركِيَّةُ لَيْسَتْ لِي، وَإِنَّمَا للشّعْبِ العُثْمَانِيّ. لا أَسْتَطِيْعُ أَبَدًا أَنْ أُعْطِيَ أَحَدًا أَيَّ جُزْءٍ مِنْهَا. لِيَحْتَفِظَ اليَهُودُ بِمَلايِيْنِهِم، فَإِذَا قُسّمَتِ الإمْبَرَاطُورِيّةُ، فَقَدْ يَحْصُلُ اليَهُودُ عَلَى فِلَسْطِيْنَ بِدُوْنِ مُقَابِلٍ، إِنَّمَا لَنْ تُقَسَّمَ إلا جُثَثُنَا، وَلَنْ أَقْبَلَ بِتَشْرِيْحِنَا لأَي غَرَضٍ كَانَ".

لَمَّا رَفَضَ السّلْطَانُ التّنَازُلَ عَنْ شِبْرٍ وَاحِدٍ مِنْ أَرْضِ فِلَسْطِيْنَ، تَآمَرَ عَلَيْهِ اليَهُودُ - لَعَنَهُمُ الله - وَاسْتَعَانُوا بِالدّوَلِ الكُبْرَى التِي كَانَتْ تُكِنُّ لِلإِسْلامِ كُلّ بُغْضٍ وَحِقْدٍ، فَوَضَعُوا خُطَّةً شَيْطَانِيَّةً اسْتَطَاعُوا مِنْ خِلالِهَا أَنْ يُبْعِدُوا السّلْطَانَ عَنِ العَرْشِ عَامَ ١٩٠٩م بِتُهْمَةِ الرَّجْعِيَّةِ، وَخَضَعَ لِلإِقَامَةِ الجَبْرِيَّةِ فِي قَصْرِ بكَارِيْكي حَتّى وَفَاتِهِ فِي ١٠فِبْرَاير ١٩١٨م.



# اختبر معلوماتك

- اشتهر المعتصم بالله بشيء يثير الدهشة وهو...

قوته الجسدية

رجاحة عقله

العلم والفقه

* * *

- استطاع هارون الرشيد أن يلحق بجيوش الروم هزيمة وذلك وهو فى عمر...

١٧ سنة

٢١ سنة

٢٠ سنة

* * *

- متى أسلم معاوية بن أبى سفيان؟

فى بداية الدعوة الإسلامية

يوم الحديبية

يوم فتح مكة

* * *

- متى صار عبد الحميد الثانى سلطانا؟

سنة ١٢٠٩٣هـ

سنة ١١٥٢هـ

سنة ١٣٨٧هـ

* * *